إذا انهار الجدار... تداعى الذين يتكئون عليه!!

الاستراتيجية الامريكية بين التغول والانكفاء

د. فهمي شريف*

■ اعتمدت الاستراتيجية الامريكية خلال الحرب الباردة على نظرية (زبيغنيو بريجنسكي) مستشار الامن القومي في ولاية (جيمي كارتر)، المسماة (الضرب في اسفل الجدار)، والتي تفترض نظرياً، ان الضرب المتواصل على اركان الجدار، سيؤدي الى انهياره لا محالة.

وهذا ما حصل، حين اشاعت امريكا حالة الاحتواء واحاطت الاتحاد السوفييتي بسور من القواعد والاحلاف، واشعلت حوله الحرائق في اكثر من مكان في العالم، وهي تعمل في الوقت ذاته على نخره من الداخل، والاهم من كل ذلك، التصعيد في معدلات سباق التسلح الذي بلغ مستوى خطيراً بات يؤثر على معدلات الناتج القومي للاتحاد السوفييتي، بان يكون التصعيد في التسلح العسكري، على حساب التنمية الاقتصادية والاجتماعية، عندها تهدم جدار الكرملين، ثم تداعت جدران المنظومة الاشتراكية التي كانت (تتكىء) على جدار الاتحاد السوفييتي، وتداعى وتهدم جدار برلين.

وفي اثر الانهيار الشامل لجدار الاتحاد السوفييتي الحديدي، وجدران المنظومة الشرقية، تصدعت الاحزاب الشيوعية الاممية تاثراً، فيما بدات الانظمة السياسية، التي كانت (تتكىء) على جدران الكرملين بالانهيار الواحدة تلو الاخرى.

ان انهيار الجدار قد عرى واقع من اتكىء عليه بوصفه يعتمد على غيره دون ان يكترث لشروطه الذاتية ومقوماته الموضوعية في البناء والحماية، انما ترك مصيره معلقاً على جدران الكرملين بانه السند القوي الذي يحمي المراد والعباد من تصاريف الزمان الذي لا يؤتمن، ولم ينتبه احد الى قانون (ضمورالقوة) . فالجدار يستهلكه الزمن، وقوته في البقاء والصمود تضعف مع الزمن، شان ذلك شان الكائنات الموجودة على الارض، ومنها الانسان الذي يولد وينمو ويترعرع ويشيخ ويهرم وينتهي الى الارض بفعل شريعة السماء وقوانين الطبيعة التي وضعها الواحد الاحد.

حتى الذين يركبهم غرور القوة من المتغطرسين الافاقين المارقين الذين يحللون ابادة الاجناس البشرية التي خلقها الله بقدر، وينهبون ارزاقها التي وهبها الله لها، ويتمسحون بغطرسة القوة، وهم اضعف ما يكونون، حيال الحق والعدل والانصاف. انهم امام الحق كائنات دنيا، لا بل، غير ذلك، لان كل الكائنات التي خلقها الله، لها وظيفة مثلى في اعمار الارض، وتوازن الطبيعة، فما هي وظيفة الذي يركبه غرور القوة وغطرستها؟!

القوة لا تبقى على حالها، وعناصر فنائها في داخلها، تنخر بها دون ان يعلم المتغطرس او المدفوع بغرور القوة حتى ينهار مع لعنة التاريخ.

كانت دول الاستعمار في سالف الزمان، دولاً قوية وتسمي نفسها بالكبرى والعظمى، ثم فعل قانون الضمور فعله وصيرها امبريالية من الدرجة الثانية او الثالثة، مثل فرنسا وايطاليا واسبانيا وهولندا والبرتغال وبريطانيا وغيرها. ولم يعد امام امريكا وغرور قوتها وغطرستها الا ان تخضع لهذا القانون، الذي سيجعل منها امبريالية، ربما لا تجد لها توصيفات ما وراء جدران العزلة، تطاردها اللعنة الابدية واشباح ضحايا (هيروشيما وناكازاكي) وضحايا فلسطين وفيتنام وكوريا وهاييتي والصومال وليبيا والسودان والبوسنة والهرسك وافغانستان والعراق، الذين يعدون بالملايين من البشر!!

جدران «الشرق الاوسط»!

وكما ان للكرملين جدارا سميكا قد تصدع وتهدم، وتداعى خلفه من كان يتكىء عليه، فإن منطقة «الشرق الاوسط»، فيها جدران لم تكن بسماكة جدار الاتحاد السوفييتي، ولا بضخامته ومتانته، ولكن صغار العقول يرون فيها جدرانا يمكن الاتكاء عليها تحسباً وتوجساً وملاذاً. والجدران هذه يشوبها شيء من المفارقة، وشيء من التداخل، وهي محكومة بغرور القوة، بالرغم من دعوات (المظلومية) من جهة، ودعوات (الحرية والديمقراطية) من جهة اخرى في ساحة واسعة شاسعة تحمل من التناقضات ما يكفيها ان تفجر اوضاعاً مروعة، طالما تضم بين ظهرانيها فسيفساء التكوين الاجتماعي، والتفاوت الفاحش في الدخول، وتناقضات المصالح القطرية والاقليمية.. فدول المشرق والخليج العربي تتكئ على الجدار الامريكي وتستقوي به، والبعض منها هرول مسرعاً ليضع بيضه كله في السلة الاسرائيلية ثم اتكأ على الجدار الاسرائيلي، اعتقاداً منهم بانه يحميهم ويحمي مصالحهم وحتى وجودهم. واعتقادهم هذا يشوبه الكثير من المغالطات، التي قد تقنع ذات الحكومات المشرقية والخليجية بان خيارها صائب، الا ان معايير علم السياسة تؤكد مسلمتين، الاولى: هي ان الجدارين الامريكي والاسرائيلي لا يحميان غير مصالحهما، وما يدعم ذلك (مبدا كارتر)، الذي يؤكد ان منطقة الخليج، منطقة مصالح حيوية امريكية، وان اي اقتراب منها او المساس بها يعد تعرضاً لهذه المصالح، وسيجابه بكل الوسائل الممكنة والمتاحة بما فيها القوة العسكرية.

فيما تؤكد اتفاقية الشراكة الاستراتيجية، الامريكية ـ الاسرائيلية لعام 1985، نمط التوافق في الرؤية الاستراتيجية المشتركة، تخطيطاً وتنفيذاً. والملفت ان هذا المبدا لم يقل شيئاً عن حماية مصالح دول الخليج العربي، ولا حماية وجودها، ولا تطورها وتقدمها.. انما حماية مصالحه الحيوية لا غير، اما مصالح دول المنطقة وحقوقها في ثرواتها ومياهها واراضيها ومنها (الجزر العربية) التي يحتلها الايرانيون منذ اكثر من ثلاثين عاماً، دون ان يكون للجدار الامريكي والاسرائيلي، الذي يتكئ عليه الخليجيون، موقف حيال هذه القضية الوطنية والقومية. ومع ذلك ما يزالون يتكئون ويغطون بنوم عميق، واذا ما استفاق بعضهم على ضجيج المناورات العسكرية الايرانية في مياههم الاقليمية دون اذنهم وامام عواصم بلداتهم.. واذا ما تنبهوا متاخرين من انتشار الوباء الايراني الصفوي من العراق، اخذوا يشعرون بالقلق، الذي سرعان ما تلقفت اشارته الادارة الامريكية، لتمارس سياسة التخويف وفرض سياسة الابتزاز بدعوى ان حماية المصالح الحيوية الامريكية، هي حماية النظم العربية، وان اي هزيمة سياسية لامريكا في جغرافية العراق السياسية، تعد هزيمة ماحقة لدولها الحليفة (السعودية ومصر والاردن). وهذا يعني، ان على هذه الدول الضعيفة حكومياً، ان تنغمس اكثر في مسارها الامريكي، ليس انقاذاً لامريكا من مازقها للخروج من العراق، انما في ما اسماه بوش (اكمال المهمة)، أي تحقيق (نصر) لامريكا لم تستطع هي ذاتها تحقيقة منذ اربع سنوات، والا فان هزيمة هذه الدول هي من هزيمة امريكا!!... في الوقت الذي يؤكد فيه العالم هزيمة امريكا على ارض العراق، وهي تشرف على هزيمة سياسية ماحقة لا تقل عن هزيمتها في فيتنام باي حال.

اما المسلمة الثانية: فهي ضمور القوة، ومعناه ان قوانين الطبيعة لا تبقي القوة على حالها، فهي تبدا بالصعود الى القمة وليس هنالك ما بعد القمة سوى الانحدار الى السفح. ولضمور القوة احكامه في الزمان والتكوين والصيرورة، وليس ذلك تاملاً فلسفياً مجرداً، انما هو حقيقة موضوعية تكشف عنها حقائق التاريخ.. اين اصبحت القوى العظمى التي تطرقنا اليها؟ واين اصبحت (قوة) الامبراطوريات العظيمة التي ارتقت اعلى درجات المجد والعظمة والقوة والنفوذ والاتساع؟ لقد احكمت عليها قوانين ضمور القوة، فتراجعت وتقلص نفوذها ودورها لتنتهي اما الى التمزق والانحلال ثم الاندثار او العيش في سبات يستغرق قرونا او الانزواء خلف اسوار العزلة بانتظار تحولات تجري لبروز قوى اخرى في نطاق مخاض عسير لاحلال قوانين ونظم موضوعية تحل محل قوانين ونظم اصابها التصدع والتمزق والانهيار!!

ضمور القوة لن يأتي بصورة مفاجئة، واسبابه كثيرة، منها الذاتي الذي يتعلق بمجمل عناصر القوة ذاتها من حيث اختلال التوازن فيها وتراجعها باستنزافها. ومنها الموضوعي الذي يشكل المعادل في القوة من حيث التكامل والتبلور والاستقطاب. وهو الامر الذي يضع مفهوم القوة المطلقة في نصابها النسبي، عندها ستتمحور حول ذاتها، وتعود الى مدركاتها في عدم تضخيم القوة، لان قوى اخرى لها ثقلها في ميزان تعادل القوى على هذا الكوكب، ستاخذ مسارها في ردم فجوة اختلال التوازن والمعايير، التي تعتمد على القوة وحدها على حساب عناصر القوة الاخرى المعروفة في علوم السياسة، وهي العدالة والحق والانصاف على اساس قواعد الاخلاق.

فالمتكئون على الجدار الامريكي والاسرائيلي للاسناد والحماية، هم مخطئون تماماً، وسيتكشف عريهم حين يتصدع هذا الجدار او يصيبه الضمور او يقرر اصحابه الانسحاب والانزواء وراء اسوار العزلة، او حين تظهر قوى ناهضة توازن وتكبح جماح القوة المفرطة على المسرح السياسي الدولي.

اما الذين يتكئون على الجدار الايراني، من السوريين، والسودانيين، وحزب الله، والحماسيون، الذين يتلمسون منه دعماً وسنداً وحماية، مقابل اخلاء ساحاتها للنفوذ الايراني وتغلغله بادوات طائفية في نسيج الشعب العربي في كل الاقطار العربية، من مشرقها حتى مغربها، تحت منهج الدولة القومية الفارسية.. فان مثل هذا الاتكاء يتم على حساب الانتماء القومي العربي والهوية الوطنية في آن. والتساؤل في هذا المنحى، ماذا يحصل اذا ما تصدع الجدار الايراني وتهدم لاي سبب كان؟ وماذا سيقول، وماذا سيفعل المتكئون عليه طلباً للاسناد والحماية؟!

فالجدار الامريكي ـ الاسرائيلي، هو في حقيقته اجنبي.. والجدار الايراني هو الآخر جدار اجنبي. وكلاهما يعملان من اجل مصالحهما القومية ولا يعملان لمصلحة من يتكىء عليهما، وان من يستغرق في النوم في ظل جدران الاجنبي طلباً للاسناد والامن والحماية سيستفيق ذات يوم، ليس بعيداً، ليجد نفسه وحيداً وعارياً، وخاصة حين تتصدع الجدران، وهي متصدعة فعلاً، وتتهدم، ولم يتبق سوى غبار الانهيار المحتم وعار الاحتماء بالاجنبي!!

* كاتب من مصر

لم ننس الاستبداد فالاستبداد لم ينسنا

د. خالد الطراولي*

■ تتوالى على مر هذه الأيام الخطب والمقالات والمواقف، الخاصة والعامة، على اثر اعدام الرئيس العراقي السابق، معبرة جلها على استنكارها وتنديدها بالحدث، ولقد غلبت على النخبة أطوار ملتهبة، منها من هيمنت عليه عاطفته ومشاعره وعاش لحظة جياشة غاب في ثناياها العقل أحيانا وغلبت العاطفة بكل جحافلها، فراح يذكر محاسن الرجل ويبالغ في ذلك.. وأصدر آخرون صك غفران مليئا بالامضاءات المشبوهة، وأسدلوا على ذاكرتهم ستار النسيان والتجاهل... وعبر آخرون عن شغفهم وحبهم للرجل متجاوزين المراحل والمحطات.. وهي لحظات انفعال وردات فعل، لعله يشفع فيها هول الحدث وبشاعة الفراق وصدمة الموقف... وأدخله البعض الآخر مقام الشهداء والصالحين ولعله يرى أن ذلك يدخل في باب «اذكروا موتاكم بخير»!

نعم مات الرجل ميتة غير كريمة طفحت حولها شبهات المكان والزمان.. نعم مات الرجل يوم عيد المسلمين ولم تراع مشاعر أكثر من مليار مسلم.. نعم قتل الرجل في ظل صيحات وصراخ ولحاف طائفي مقيت.. نعم أعدم الرجل في اطار من التشفي والشماتة والسقوط الأخلاقي والقيمي.. نعم أعدم صدام في ظل محاكمة اطارها مشبوه ومراحلها مشبوهة ونهايتها مشبوهة... نعم مات الرجل في ظل تصفية حسابات وثأر بين مليشيات وقطاع طرق وأمراء حرب...

نعم أحدث صدام نقلة في تصنيع بلاده وساهم ولا شك في تنمية مجتمعه وأعطاه دفعة نحو الرقي والازدهار... نعم تعلم الشعب ونقصت الأمية وأصبح العراقيون يتميزون بمعارفهم وعلمهم حتى أنهم بدأوا يطأون مجالات وفضاءات كانت محرمة على أبناء العالم الثالث... نعم كل ذلك كان صدام ولا شك ولكن ليست مكرمة أن يستنهض قائد شعبه ويزيل عنه الفقر والبؤس، وكأننا أنسانا حالنا أن السياسة جعلت لازدهار الأمم والمجتمعات وأنها تكليف وليست تشريفا!

ولكن هل ننسى ظلم صدام؟ هل ننسى ما فعله في شعبه؟ عقود من الويلات والجور البواح... عقود من التفرد بالسلطة والاستفراد بالرأي... عقود من التنكيل بالأعداء والمنافسين وحتى الأصدقاء والأهل المقربين.. هل ننسى الحرب ضد ايران وما أصاب شعبه من خسائر وأموات تعد بمئات الآلاف؟.. وهل ننسى تهوره ودخوله الكويت وادخاله بلاده في مستنقع الحصارات والتجويع والقتل البطيء، حتى قيل أن الآلاف من الأطفال ماتوا من الجوع ونقص الأدوية؟... كل هذا صدام وكل هذا الاستبداد، كل هذا الاستفراد بالسلطة والتفرد بالرأي وغياب التعددية ومنع الحرية أن يستنشق نسيمها الجميع الا في ظل الحزب الواحد والفكر الواحد وتحت مظلة الزعيم الأوحد.

ان الميتة المشبوهة والبشعة التي مات بها صدام لا يجب أن تحجب عنا صورة الرجل المستبد والدكتاتور التي لاحقته طول حياته، والتي لا تقتصر عليه وحده، بل صبغت مرحلة كثر فيها المستبدون في المشرق والمغرب، لعل عيب صدام أنه سقط وغيره لم يسقط، لعل عيبه أن استبد «أكثر من اللازم وأكثر مما يرضي بعض الأطراف» لعله رفض «تقاسم» الاستبداد!!!

لعلكم لاحظتم الصمت المريب، أو الاستنكار الخفيف الذي عم الحكومات العربية على اثر الحادثة، وكأن حال حكامنا وزعمائنا هو استغلال هذا الشعور العام الذي ملأ الآفاق وترك الجماهير تعبر عن استيائها وغضبها، لعل حكامنا رأوا في هذه الحادثة تنفيسا لأحوالهم ومحاولة نسيان شعوبهم لحالة الاستبداد والاستفراد التي تعم ديارهم...

لقد كانت هذه العاطفة الجياشة التي صبغت مواقف العامة حالة انسانية فطرية تقف الى جانب الضحية في مقابل الجلاد، وموقفا وطنيا يغلب ابن الوطن على ابن الجيران، وحالة دينية وقفت فيها الأنا تدافع عن شعيرة وقع المساس بحرمتها، لقد كانت هذه العواطف طبيعية ولعلها تلامس مرتبة الوجوب وهي تعبير عن أمة لم تمت ولم تدخل مرحلة الاغماء رغم قسوة الاطار وحضور الجلادين بكثرة وغلظة، (وقد ذكرت ذلك في مقال سابق بعنوان «بين صدام وجعد بن درهم لقاء تحت جنح الظلام») غير أن الاستبداد الذي لم يتوار في ديارنا أراد ركب الحدث ونسينا أننا لا زلنا نرضخ تحت درته وسياطه وبين محافل سجونه ومعتقلاته.

لقد راهن الاستبداد ولا يزال على طيبتنا وخيريتنا ولا يزال يعتقد أننا ميالون بطبعنا الى الركون والانسحاب وتركه يعربد كما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء، ولا يزال يستخف بحالنا ويواصل هيمنته واستفراده استنادا الى خوفنا وجبننا، وهو يسعى دائما الى تذكيرنا أنه الواقي لنا والحامي ضد المتطرفين الذين يريدون نهايتنا.

نعم أعدم صدام ولكن الاستبداد لم يعدم لا في العراق ولا في غير العراق... ولا زالت صور الجور والعبث والظلم تلازم يومنا وليلنا وتلاحق مجتمعات بأسرها، وأصبح بعضها أسير أسر تتقاسم حلوها وترمي بالمر لشعوبها، ولازال الطريق طويلا ومليئا بالأشواك للتحرر من براثن هذا الكابوس المخيف الذي طال ليلنا ونهارنا ونحن لا نزال نحلم بسقوط صدامين آخرين ولكن في اطار سليم وحضاري وقانوني، وفي ظل يقظة وطنية ومقاومة سلمية، وبعيدا عن الثأر والتصفية والسقوط الأخلاقي والقيمي وتدخلات أجنبية...

فاذا كان الاستبداد عنوان مرحلة لا زلنا نعيش أيامها القاسية، فان مرحلة ما بعد الاستبداد لا يمكن أن تبدأ صفحتها الأولى بقلم مرتجف وبحبر أحمر وعلى ورقات صفراء مستوردة تفوح منها رائحة التشفي والشماتة والظلم والجور ومصالح أفراد وجماعات... ان الاستبداد عقلية وثقافة صاحبت مرحلة هامة ومصيرية في حياتنا وعطلت مشوارنا نحو الانعتاق والتحرر والتقدم والتحضر، ولا سبيل لبناء مرحلة جديدة بنفس الأدوات والعقلية والثقافة، والا فان نهاية دكتاتور الأمس هي بداية دكتاتور الغد ولن نخرج من حلقة مفرغة عنوانها «الدكتاتورية» ولو لبست عمامة أو قبعة، وتقمصت زي الرهبان أو ملابس بني علمان وادعت خدمة الشعب!!!

* كاتب من تونس

الميليشيات في العراق: مسلمون بالولادة مجرمون بالفطرة

حسني ابو المعالي*

بورك في جيش المهدي لانتفاضته الباسلة ضد اخوانه في الدين والوطن، العرب السنة، وبورك في فيلق عمر لعمليات الانتقام الدموي من اخوانه في الدين والوطن، العرب الشيعة، فالعرف السادي يقضي أن يقتل المسلمون بعضهم البعض، والاسلام لم يقل واعتصموا بحبل الله جميعا، ولم نسمع عن الرسول (ص) قوله بأن المسلمين اخوة كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، طوبى لك يا عمر في تصديك لكل من اسمه علي صالحا كان أم طالحا، وطوبى لك يا علي استهدافك لكل من اسمه عمر أكان يستحق القتل أم لا، وكأن عمر بن الخطاب كان عدوا لدودا لعلي بن ابي طالب ولم تربطهما صلة رحم القرابة والدين، علما بأن الآلاف من العرب السنه زينوا أسماء بنيهم بعلي وفاطمة والحسن والحسين وغيرها من الأسماء العربية، وآلاف من العرب الشيعة فضلوا تكريم أسماء بنيهم بعمر وعثمان وخطاب وعائشة وغيرها من الأسماء العربية، فما الخلاف في ذلك والأسماء كلها عربية؟ ناهيك عن التلاقح الاجتماعي العريض بين الشيعة والسنة.

أتساءل هنا: هل الاسلام حقا عصي على مدارك المسلمين، أم انهم لم يستوعبوا بعد ماهية الاسلام؟ تبلور لدي هذا التساؤل على ضوء التناحر الطائفي المتواصل الذي لون حياة الشعوب الاسلامية بالدم على امتداد التاريخ ولم يحظ المسلمون في يوم من الأيام بعصر استقرار حقيقي تجمعهم المودة والألفة والتفاهم على أسس دينية وانسانية، بل يبدو أننا لم نرتق بعد الى مستوى درجات عليا من البشر وصولا الى المعدن الأصلي للانسان، وفي الوقت الذي نجد فيه قرآنا واحدا ورسولا واحدا تعددت المرجعيات واختلفت الاجتهادات وتنوعت المذاهب دون الاستفادة من هذا التنوع واستثماره ايجابيا لصالح الشعوب الاسلامية.

انها حرب مجنونة تجري رحاها على أرض العراق بين مجموعتين ضالتين من أبناء الشعب الواحد تدعي كل منهما مجازا بأنها مسلمة ولكنهما لم تكونا سوى عدوتين للاسلام، حرب ضروس خلفيتها خرافة طائفية نابعة من جهل مرتكبيها بالاسلام وتخلفهم عن الانفتاح واللحاق بركب الحضارة، أناس خرجوا من رحم الظلام والأمية، هدفهم حجب شمس الحرية والديمقراطية عن هذا الوطن الذي عانى عهودا من القهر والاستبداد.

أناس تناسوا وجود الاحتلال الذي أذلهم وأخضعهم لسياسته وكان السبب المباشر وراء هذا الاقتتال الطائفي المقيت من خلال جميع نشاطاته المشبوهه داخل الوطن ومنها الكاميرا الخفية، الى جانب سياساته الملتوية الأخرى التي انطلت على قادتنا الميامين وسقطوا في الفخ الامريكي، فقد لعبت آلة التصوير الأمريكية دورا قذرا في شق الصف العراقي وتمزيق أطيافه الموحدة وتشويه صورته أمام العالم منذ أن مهدت أجواء حرية السرقة، لضعاف النفوس والمسحوقين من أبناء الشعب وصورتهم بطريقة مخجلة وبثتها عبر قنواتها، فمن صور فضيحة أبي غريب؟ ومن كشف أسرار سجون التعذيب في أقبية وزارة الداخلية غير الاحتلال؟ ناهيك عن استغلال فيديو زيارة أياد علاوي الى النجف الأشرف، وكذلك معظم التصريحات لبعض أشباه القادة من أنصاف الرجال غير المقبولة التي تصب في تعميق الخلاف بين السنة والشيعة، وأخيرا وليس آخرا تصوير اعدام صدام حسين وزمرته بالأسلوب غير المتعارف عليه دوليا، وبثها علنا لنفس الهدف الطائفي البغيض، والغريب أن نجد مجموعة من المثقفين العراقيين شيعة وسنة ينحازون لانتماءاتهم الطائفية بشكل سلبي على حساب الطوائف الأخرى، وهذا ما يتعارض مع دورهم الحقيقي في نشر الوعي التضامني للأمة، كن ما شئت يا أخي شيعيا أو سنيا وان شئت فكن حتى مجوسيا، ولكن ليس لك الحق في مصادرة حقي وحريتي وحياتي لمجرد اختلافي معك، ان الله وحده القادر على مصير عباده، يحاسب من يشاء ويجازي من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ومهما كان انتماؤك فأنت حر في اختيار مذهبك وملابسك ولحيتك وطريقة أسلوب حياتك، ودعني أعش حياتي بما ينسجم مع تطلعاتي، ولكن شريطة التزام كل منا بحدوده وشعائره دون المساس بأمن الوطن واحترام واجباتنا تجاهه، آه يا عراق الأحزان متى ستغني للحياة بعيدا عن الحقد والتمزق والاقتتال وبمنأى عن الجهل والتخلف والاحتلال؟

* كاتب وفنان عراقي

استهداف لبنان: بعض الدلالات الاستراتيجية

ع. الصمد بلكبير*

1 ـ منهجيا، يجب اولا الا تشغلنا الوقائع اليومية، الطارئة وحتى المطردة عن التفكير، وتدبير ما هو استراتيجي. ظواهر اليوم او الغد تكشف فقط عن بواطن الامس واليوم. ذات الطبيعة الاقتصادية ـ الاجتماعية. اكثر منها السياسية او الثقافية.

من ثم فان هذا الانفجار اليوم او غدا، هنا او هنالك. هي وقائع واحداث لا يمكن لها ان تمتلك دلالاتها الخاصة من ذاتها. بل اساسا من موقعها في المكان وموقعها في الزمن التاريخي الذي تحكمه قوانين عامة ذات طبيعة استراتيجية وتاريخية، لا جغرافية ـ سياسية. وهذه الاخيرة ليست في محصلة التحليل سوى تجليات وظواهر. قد تكون لها نتائج مؤقتة او دائمة، مقارنة الى تلك التي تكتسي طابع الديمومة والشمولية بالمعنى التاريخي.

2 ـ ان الطابع الرئيس للتناقض ومن ثم للصراع في عالمنا وفي عصرنا. ما زال هو هو رغم تغير مكوناته جزئيا او مظاهر تعبيره، انه:

ا ـ بين رأسمال والعمل. بين الشركات المتعددة والمتعدية الجنسيات وادارات دولها القاهرة والاستعمارية غالبا. وبين الطبقة العاملة في بلدانها الاصلية، وبقية الشعوب المستضعفة في الجنوب.

ب ـ وحيث ان التناسب بين الراسماليين الثابت والمتحول قد تحول لمصلحة الأول بسبب تقدم العلم والتقنيات. الامر الذي انعكس سلبا على فوائض القيمة وذلك بانخفاضها (= الارباح خاصة) المتزايد والمتلاحق. فلقد عمدت راسمالية المراكز الامبريالية الى مضاعفة التركيز على الفائض الاقتصادي الناتج عن علاقة النهب والاستغلال الممارسين على شعوب الجنوب المستضعفة. وبذلك تحولت ادارات الدول الغربية الى اداة رئيسة لتوفير شروط ذلك:

ب ـ 1 ـ بسياسات القروض الربوية المجحفة والمفسدة لادارات دول المستعمرات ولاقتصادياتها ومجتمعاتها وقيمها وتقاليدها...

ب ـ 2 ـ بالعلاقات التجارية الدولية الظالمة: التبادل غير المتكافئ للسلع وللخدمات. وهو نمط من «السرقات» الموصوفة.

ب ـ 3 ـ بالتدخلات الصريحة والسافرة السياسية وحتى العسكرية عند الحاجة، في تقرير وتوجيه السياسات العمومية، لادارات الدول التابعة في مستعمرات الجنوب. بما في ذلك خاصة اسلوب الانقلابات العسكرية، القواعد العسكرية، شراء وافساد النخب الحاكمة ونخب المجتمع... الخ.

ب ـ 4 ـ بتخريب اقتصاديات ومجتمعات وثقافات... دول ومجتمعات الجنوب: نشر الاوبئة واصطناع الحروب الاهلية او حروب الحدود، اصطناع ازمات اقتصادية وخاصة مالية... ثم خاصة بنهب ثرواتها الطبيعية (البترول مثلا) والبشرية (هجرة الادمغة).

3 ـ بسبب هذا الجموح للراسماليات نحو التوسع والسيطرة والنهب... وما ينتج عنه من تنافس وصراع بين مختلف اطرافها ودولها، يعاني العصر من احتدام للتطاحن بين الامبرياليات خاصة منها الامريكية والاوروبية. وذلك على جميع المستويات خاصة في افريقيا والوطن العربي. ان الكبار يتناطحون ويؤدي الصغار ثمن ذلك من اقواتهم ومعاشهم.. واستقلالهم... بل وحيواتهم ايضا.

4 ـ من اهم ادوات الصراع واسلحته، بالنسبة لمختلف الطبقات، هو حرمان الخصم من اسلحته او فلها بين يديه. وهذا ما يحدث اليوم في عدة مظاهر. يعتبر من بين اهمها تحول التناقضات الثانوية الى رئيسة، تشويه الوعي وتحريفه، تضخيم الجزئي وتقزيم العام والكلي. الخلط في علاقات الاطراف (عدو، خصم، حليف)، وفي ترتيب الاولويات...الخ. في حالتنا المخصوصة يمكن في نفس السياق ابراز القضايا والموضوعات التالية:

4 ـ 1 ـ ابراز البعد الهوياتي او الثقافي او الايديولوجي.. على حساب ما هو من طبيعة اقتصادية ـ اجتماعية وسياسية (=الاستغلال ـ السيطرة ـ النهب...).

4 ـ 2 ـ خلط العلاقة وحتى افسادها بين المعركتين الوطنية التحريرية (ومنها القومية التوحيدية) ومعركة الديمقراطية، وهما مهمتان متداخلتان ومتزامنتان اليوم، غير ان استراتيجيتهما مختلفتان، وبالتالي مقتضياتهما البرنامجية والتكتيكية والتحالفية...

4 ـ 3 ـ اصطناع التناقضات بل التنافرات بين مكونات الامة. خاصة منها تياراتها الكبرى والرئيسة. نقصد: ا ـ الوطنية ـ القومية التحريرية. ب ـ الاشتراكية الديمقراطية التي تركز على البعد الاجتماعي للتناقضات وللصراع. ت ـ التيار الهوياتي واهمه الاسلامي التحرري والديمقراطي.

العجز في الجمع التوحيدي، والذي لا يكون على حساب حق كل تيار في استقلاليته الفكرية، هو اليوم المسؤول الاول عن العجز العام في الصراع الوطني ـ القومي ـ التحرري ـ الاستقلالي والديمقراطي.

5 ـ ان نمط الحياة الغربي وخاصة منه الامريكي. هو مصدر آخر للتناقض وللصراع في عصرنا. ذلك ان الفساد والافساد المعمم والذي انتجته الراسماليات الغربية، وذلك منذ المرحلة الاستعمارية التقليدية وحتى اليوم، وذلك كرشوة لمجتمعاتها من جهة وكتشويه لها وعيا ووجدانا وسلوكا و.. واجسادا من جهة ثانية، هو اليوم مصدر آخر من مصادر الازمة او الازمات في عالمنا المعاصر. خاصة بالنسبة للبيئة وللطبيعة. ذلك لان السفه في انماط الاستهلاك الغربية، لا يسمح مطلقا بتوازن بين البشرية ومحيطها الحيوي ـ الطبيعي. فما بالك باحتمالات تعميمه (نمط الاستهلاك) المستحيلة. ان البشرية المعاصرة تحت قيادة الراسمالية تسارع الخطى نحو انتحار جماعي ونحو خراب معمم للعالم.

6 ـ ما حدث في لبنان، وما يحدث في عموم الوطن العربي وجزئيا ايضا الاسلامي، هو جزء من كل فقط. والا فالحروب والتخريب.. قائمان في العالم ولكن بصمت في الغالب. ما يميز الامر مشرقا هو ضجيجه، وذلك لجملة اسباب:

6 ـ 1 ـ ا لموقع الجغرافي ـ السياسي. وهو ثابت وله اثر منذ اقدم عصور التاريخ. انها صرة العالم، او قلبه، كما كان يقال.

6 ـ 2 ـ مسألة البترول. وتمركز وجوده في هذه المنطقة بالذات وهو ما هو بالنسبة لاقتصاديات وانماط الحياة المعاصرة.

6 ـ 3 ـ البعد الثقافي للصراع، وخصوصية مواطني هذه المنطقة نظرا لخصوصيات ذاكرتهم وتاريخهم الثقافي الخاص العريق والمتميز. الامر الذي يحصّنهم ويمنّعهم ويسلحهم بشروط المقاومة وحتى المواجهة. استجابة للتحديات جميعها. الامر الذي قد لا تجده الامبريالية في مناطق اخرى في العالم.

7 ـ لنتذكر دائما ان الجغرافية ـ السياسية للوطن العربي هي منتوج استعماري اساسا، ومن ثم فان الذي انتج اسرائيل كيانا له وظيفة محددة هي اليوم عموما معروفة. هو نفسه الذي اصطنع لبنان لوظيفة اخرى مكملة ومتممة لذات الاستراتيجية. والحكم نفسه ينسحب على بقية الكيانات ايجابا او سلبا.

7 ـ 1 ـ الهدف الاول هو التجزيء القطري، ومنع قيام الدولة القومية. والتي بدونها لا حرية ولا استقلال ولا تنمية ولا ديمقراطية. هذا هو التناقض الرئيس في وطننا.

7 ـ 2 ـ الهدف الثاني: عندما يتعذر التجزيء والمزيد منه، هو اصطناع كيانات صغرى ضعيفة معوقة بالجوار من اي كيان يملك الحد الادنى من مقومات الحياة والصمود (لا التقدم...) فهكذا اصطنعت للسعودية دولة قطر والبحرين وللعراق الكويت ولسورية لبنان والاردن... والسودان لمصر... وللمغرب موريتانيا ثم الصحراء الغربية، اما اسرائيل فللجميع.

8 ـ لا يملك لبنان ان يكون دولة، يراد لها فقط ان تكون متجرا ومصيفا (او مربعا ومشتى) سياحيا، لراسماليي المنطقة، وعاصمته مدينة عولمية مفتوحة لاقتصاديات التهريب والتبييض والقمار والمخدرات... وخاصة ايضا للمخابرات، تماما كما أريد للكويت ان تكون محض شركة مالية، واسرائيل حاملة طائرات ثابتة ومرتزقة ـ جنود تحمسهم لـ«التضحية» مافيا ايديولوجية مأجورة على خدماتها الاستعمارية ـ التوسعية (= ضباط جيش، وقادة الاحزاب الصهيونية).

9 ـ في لبنان، واكثر من فلسطين، تلتقي التناقضات وتحتدم الصراعات بين الاطراف جميعها في المنطقة وخارجها، خاصة الامبرياليتين الامريكية والاوروبية (بقيادة فرنسا) من جهة، وغريميهما الرئيسيين في المنطقة والمستهدفين من قبلهما: سورية وايران، التناقضات الاجتماعية ـ الثقافية والسياسية اللبنانية ترتبط واحيانا تتداخل وتندمج بهذه التناقضات بين استراتيجيات كبرى في المنطقة وفي العالم.

10 ـ عجز الامبرياليتين الامريكية والاوروبية عن معالجة تناقضاتهما داخل لبنان من جهة، وبينه مع اسرائيل من جهة اخرى (مزارع شبعا) هو ما سمح، بل وفرض اضعاف كيان ادارة «الدولة» اللبنانية (جيشا وامنا وخدمات..) لمصلحة استقواء ادارة المجتمع (خاصة حزب الله) وتاهيله للالتقاء وحتى التطابق مع استراتيجية جهوية دفاعية ومناضلة تحريرية شكلها التحالف العربي (السوري) والايراني. وبالتالي عدل تدريجيا من ميزان القوى على مستوى هذه الجبهة لمصلحة الشعوب ضدا على مستعمريها ومستهدفيها. ومن ثم فتحت ولاول مرة ثغرة في الجدار الاستعماري، سيكون مآلها دون شك الاتساع والانفتاح التدريجي، لتحول بقية المناطق من توظيفها الاستعماري الاصلي والذي انشئت من اجله، الى وظيفة اخرى مضادة ومناوئة ومقاومة تحررية وديمقراطية.

11 ـ مقياس الحداثة اليوم هو كما كان بالامس مسألتان: 1 ـ امتلاك المعرفة والعلم والتقنية. 2 ـ حكم الجماهير (لا البورجوازية) اي الديمقراطية. وهذا بالذات هو ما يغيظ امريكا من ايران اساسا، وايضا جزئيا من سورية المتشبثة بحقها في الاستقلال وعدم الدخول في لعبة القروض والسوق الدولية وتجارتها غير المتكافئة ونمط الاستهلاك البورجوازي السفيه... الخ. لم يجدا حليفا شريفا وفعالا في المنطقة فضلا عن الشعب الفلسطيني سوى حزب يملك سلطة المجتمع (قلوبه وعقوله واراداته وحتى اقتصاده) وذلك بالذات بسبب ضعف وحتى عجز ادارة الدولة البورجوازية التابعة وغير العادلة (التفاوتات الاجتماعية) وغير الديمقراطية (نظام الطوائف) والسفيهة...

ان المصير الحتمي لادارات بقية «الدول» في المنطقة هو هذا النمط اللبناني بالذات. آليات العولمة ومنطقها وقوانينها تتجه هذه الوجهة بالنسبة لجميع الدول، وخاصة منها التابعة وغير المقاومة، انفتاح الاسواق وتسيبها بما يعني انهيار الاقتصاديات الضعيفة / تحويل جيوشها الى شرطة امن داخلي. لا تحمي حدودا لم يعد لها وجود / تصدير ازمات المراكز نحو اطرافها الجنوبية بما في ذلك خصوصا الثقافية والاخلاقية والسلوكية... منها... الخ.

جميع ذلك وغيره يعني اليوم انه لا ملجأ للمجتمعات المستضعفة سوى الى نفسها. اما ادارات دولها فهي بصدد التخلي عن مهامها الاصلية تدريجيا نحو مهام حارس المصالح الامبريالية. ان نمط «حزب الله» هو في الغالب نموذج سيقع ت